مدخل إلى المسرح المغاربي

يعدّ المسرح فنّا تشخيصيا تعبيريا بامتياز عن صراعات وقضايا وأحوال اجتماعية، وقد وُجد هذا اللون العريق كي يُرى ويُسمع مباشرة، ليكون لمعايشة وقائعه أثر إيجابيا، يجعل المتفرّج أو الجمهور مشاركا ومتحوّلا على إيقاع العرض، وهو ما يجعله فنّا مختارا وأقرب إلى كينونة الفرد والجماعة. من هنا نتساءل عن البداية المسرحية للبلاد العربية، ومتى كانت النشأة الفعلية للمسرح العربي عموما والمغاربي منه خصوصا؟ وما القضايا التي عالجها؟

مفهوم المسرح:

لغة: مأخوذ من فعل سَرَحَ، ويعني الترويح عن النفس. وبالتالي، فالمسرح هو مكان للترويح عن النفس.

اصطلاحا: فنّ تشخيصي يقوم على محاكاة الأفعال البشرية والحركة، باستخدام الجسد مادة محورية للتعبير، وما يرتبط به من إشارات دالّة على الزمان والمكان أمام جمهور حاضر.

أصل المسرح وتطوره:

نشأ نتيجة للطقوس الدينية منذ العصور البدائية؛ حيث كان الإنسان يلجأ لممارسات مسرحية كالرقص والغناء، متخذا جلود الحيوانات والأقنعة وسيلة لإرضاء القوى الغيبية، حتى تهبَهُ ما يحتاج من قوت وماء.

أمّا الولادة الحقيقية للمسرح، فكانت على يد الإغريق القدماء في احتفالاتهم الغنائية والإنشادية الخاصة بالإله ديونيسوس إله الخصب والنماء.

البداية المسرحية عند العرب:

ظهر المسرح في البلاد العربية نتيجة الاحتكاك الثقافي مع الغرب عبر حملة نابليون على مصر والشام، وعن طريق الرحلات العلمية والسياحية، فقد أسهم الغرب إلى حدّ كبير في تشكيل المسرح العربي، لا سيّما عن طريق الاستشراق منذ منتصف القرن 19م، ضمن أعمال مستشرقي المدرسة الألمانية والمستشرقين الإنجليز والإيطاليين والفرنسيين.

وهكذا، كانت النشأة الفعلية في مصر، وهكذا تزايد وعي المشارقة به وبأهميته، ما دفعهم بالخروج من قوقعة الاستشراق، فسعوا إلى الاطلاع على الثقافة المسرحية من خلال كتاباتهم الخاصة في الميدان، حتى يتسنى لهم وعي مسرحي يخوّل لهم الإنتاج الفعلي، فتمّت

إنشاء مجموعة من القاعات المسرحية سواء أكانت للعرض الخاص أم قاعات أنشأتها الدولة لرعاية الفن والآداب إبّان الثورة الناصرية، على الرغم من الرسائل الانتقادية الخطيرة التي واجهها المسرح من التنديد بالمستعمِر وأصحاب السلطة والجاه.

ظهور المسرح المغاربي:

وهكذا، انتقل المسرح إلى المغرب العربي من خلال التأثير المشرقي لاسيما المصري، عندما زارت مجموعة من الفرق المسرحية دول المغرب العربي، دون أن ننسى التأثير الذي مارسه المستعمر الفرنسي، حينما شيّد بالمغرب مجموعة من القاعات المسرحية التي كان يُعرض فيها المسرح الغربي، خاصة مسرحيات موليير.

فالمغرب لم يعرف المسرح إلا في فترة متأخرة مع القرن 20م، إبان زيارة الفرق المصرية لبلدانه: فرقة محمد عز الدين التي عرضت مسرحية صلاح الدين الأيوبي بالمغرب، فرقة فاطمة رشدي التي أسهمت في انتعاش المسرح بتطوان (المغرب)، فتأثّر مجموعة من الشباب بهذا الفن، كونه سلاحا لهم ضد المستعمر، وهو كذلك وقفة وطنية تنادي بالاستقلال؛ إذ كان الشغل الشاغل للنضال وإحياء مفهوم الوطنية، فكانت الأعمال المسرحية التي كتبت خطابا سياسيا يرمي إلى تقريب الواقع المعاش، إلا أنّ البداية ظلت مضايقة من جهتين:

– جانب الدين: الذي عدّ ممارسي المسرح كفارا.

– جانب الإدارة الاستعمارية: التي كانت تمارس وصاية حقيقية على العمل الإبداعي، وتقنّن شروط العمل المسرحي.

وقد اعتمد المسرح المغاربي بداية النمط الغربي بكلّ تفصيلاته، ومردّ ذلك لأسباب منها:

– التأثر المباشر والتلقائي بالشاكلة التي استهلّ بها المسرح وجوده في الشرق العربي، خاصة مع الترجمة والاقتباس والتعريب المباشر عن مصادر الأمم الغربية.

– الاستنجاد باللسان العربي من قبل النخبويين إزاء سياسة المستعمر متصديا لأغراض هدّامة وطمس ومحو الهوية العربية.

– إفرازات الاحتكاك الثقافي ومحصّلاته مع المغرب.

أمّا المرحلة الثانية التي مرّ بها المسرح في المغرب، من حيث التأسيس، ففي عهد الاستقلال حيث حاولت مجموعة من المسرحيين المغاربة الخروج من دائرة العمل المسرحي القائم على التأثير الشرقي، والاتجاه به نحو آفاق أوسع عن طريق الانفتاح على السرد ودراسة

طرق الإخراج واقتباس ترجمات مسرحيات متنوعة، فما كانت أن سادت للمسرح المغاربي مسرحيات تمويهية تساير الوضع دون طرح تطورات مستقبلية على مستوى معالجة القضايا.

وقد تبلورت الممارسة المسرحية بالمغرب في بداية الستينات في بنيتين رئيستين هما: الطّيّب الصّدّيقي والطّيّب العلج؛ حيث كان لهذين الاسمين أعمق الأثر في أجيال عديدة من المتفرّجين، بفضل غزارة انتاجهما ونزوعهما نحو التجديد.

قضايا المسرح المغاربي:

إنّ المسرح المغاربي مازال وسيبقى مرتبطا بقضايا المجتمع العربي لارتباطه به عضويا، تلك هي ماهيته وسبب ابتكاره ووجوده، فقد ابتكرت الإنسانية هذا الفن ليكون مرآة لها ترى من خلاله ذاتها، فتصوّب ما يجب تصويبه وتغيّر ما ينبغي تغييره. ومن هذا المنظور، فالمسرح يرشد الإنسانية إلى العيوب بهدف تفاديها، ويعزّز المحاسن إن وُجدت فيها.

المراجع:

- يوسف لعجان: المسرح بين التاريخ والواقع، ديوان يوسف لعجان، 22 أفريل 2012، يوم 28 جوان 2024، 13:22، موقع: https://laajan-youssef.blogspot.com/2012/04/blog-post_22.html